تاجر مخدرات يقود إمبراطوريته من غرفة نومه

«الرقائق اللامعة» سيرة الولد الهادئ أخطر المجرمين

ربما تبدو السيرة الذاتية عبر الوثائقي فيها الكثير من الإجابات على الأسئلة التي ترتبط بالشخصية وأفعالها وحياتها الخاصة وهي في الواقع نوع من الملامسة عن قرب لذلك البروفايل الغامض والمخفي والذي جعل من الشخصية ما يؤهلها لكي ننشغل بسيرتها الخاصة، وهو ما يبدو جليا في فيلم "الرقائق اللامعة".

طاهر علوان
كاتب عراقي

ما زال فيلم "الرقائق اللامعة" للمخرجين إيفا مولر وميكائيل شميت، الذي يتناول السيرة الذاتية عبر الأسلوب الوثائقي، يتصدّر المشاهدات من خلال الملايين ممن شاهدوه من حول العالم مخلفا وراءه أصداء جديرة بالأهمية.

بكثير من العفوية وملامح الوجه الطفولي يمكنك تتبع السيرة القصيرة زمنيا والطويلة بأحداثها والتي ترتبط بأصغر وأشهر تاجر للمخدرات في تاريخ ألمانيا وقد أصبح مليونيرا مستخدما غرفة نومه فقط مقرّا له.

الولد الهادئ

ها هو بعد انقضاء مدة السجن وقد عاد ليدخل ذلك المربع الذي ليس إلا غرفته الضيقة التي قرر فيها أن يلتحق بالقاع غير المرئي والحياة الخفية للجريمة بكل أشكالها، وصولا إلى المتاجرة بالمخدرات، وبهذا كان دافع الاكتشاف محركا كافيا مدعوما بفضول التعرّف على الخفايا، وذلك ما قاد الشاب ماكسميليان شميدت للولوج إلى ذلك العالم الخفي للتعرف على عالم المتاجرة بأنواع المخدّرات.

> الفيلم مبني على التفاصيل واليوميات التي كان يعيشها الشاب وكيف بدأ التوغل في عالم الجريمة المثير

لم يكن ماكسميليان وفق سيرته بحاجة إلى موزعين يعملون لصالحه ويتنقلون في الضواحي لإيصال الطلبيات، بل اعتمد على البريد الألماني وسيلة للوصول إلى زبائنه ثم البريد الدولي السريع للوصول إلى مشترين من حول العالم.

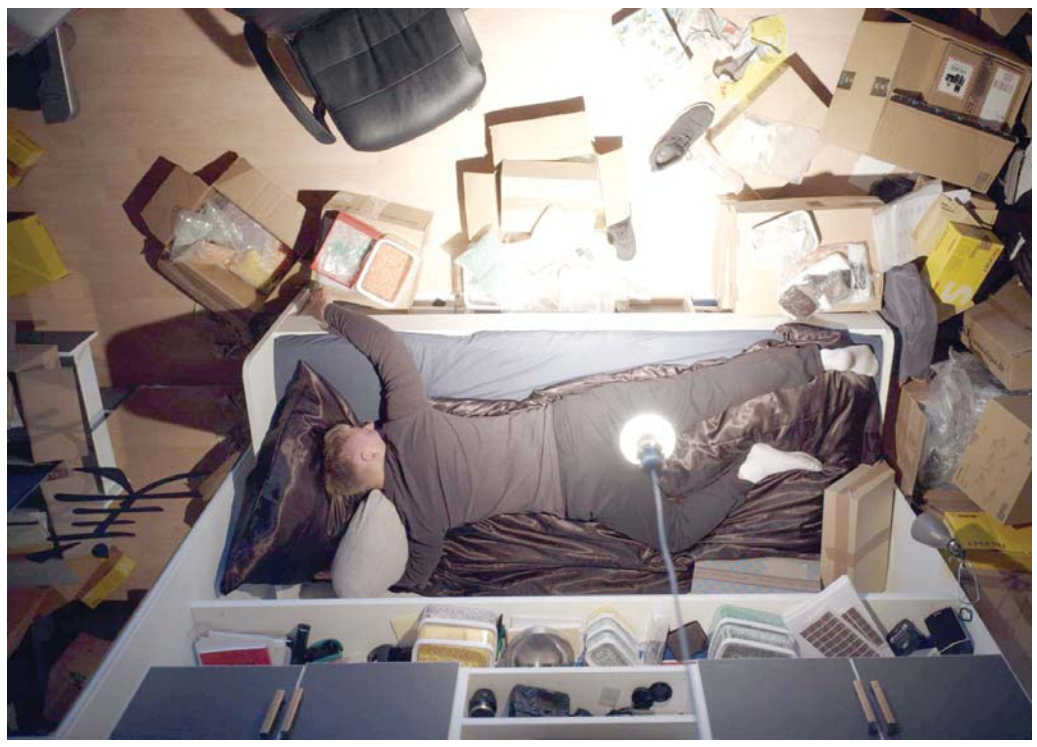

عالم خفيّ لتاجر مخدّرات ليس له مثيل

يُبنى هذا الفيلم على التفاصيل واليوميات التي كان يعيشها ماكسيليان نفسه وكيف بدأ التوغل في عالم الجريمة والحوارات اليومية مع أشخاص هم كالأشباح بأسمائهم المستعارة والأجواء الغامضة، التي يتفشى فيها قراصنة الإنترنت وتجار العملة الرقمية البيتكوين التي كان ماكسي يتعامل بها لدرء الشبهات ومراقبة السلطات عن نفسه، ثم يقوم بتحويلها لاحقا إلى عملة اليورو.

اعتمد المخرجان مزيجا متميزا من اليوميات الحقيقية وصور المراسلات والصفقات والإرساليات بالتوازي مع شهادات كبار الضباط والقضاة والمحققين الذين تولوا ملف ماكسي، وما يزالون يعبرون عن أعلى درجات التعجب والصدمة للدقة والحنكة والمطاولة التي تمتع بها ذلك الشاب الذي لم يصل الثلاثين من عمره عندما تربع على عرش إمبراطورية قوامها عشرات آلاف الكيلوغرامات من أنواع المخدرات دخلت غرفته وخرجت منها ورصيدا يقارب الخمسة ملايين من الدولارات في مساحة زمنية قصيرة.

لا فبركة أمام الحقيقة التي تسيطر على مسار السرد الوثائقي لهذا الفيلم وحيوية الانتقالات المونتاجية وتنوع الأماكن مما خفف من وطأة سيطرة المكان الواحد، الذي هو مخبأ ماكسي في بيته وقد توارى عن أنظار والديه لأنهما لم يكونا يريان فيه سوى ذلك الولد الهادئ المسالم ذا الاهتمامات البسيطة والولع بالإنترنت كما يفعل سائر الشباب من جيله، بينما كانت تجري في تلك الدار نفسها التي يحتجز ماكسي نفسه في غرفة فيها ما لا يمكن أن يخطر على بال عندما وصل إلى مرتبة النخبة في الموقع الذي يصنف عتاة المجرمين الذين يواصلون إجرامهم من حول العالم.

وفي إطار السرد الوثائقي أيضا وفي إطار التنوع السردي، كان هنالك استخدام بارع للشهادات التي قدمها رجال فرض القانون والتعليق من خارج المشهد – فويس أوفر – فيما كان ماكسي يمضي في ظلمة الليل أو في النهار ليفرغ حقيبته المحشوة بالطلبيات وليدسها في صناديق البريد التي في الشوارع الألمانية، وحيث يجدها عمال البريد جاهزة للإرسال بعد أن قام ماكسي بتجهيزها لغرض الإرسال بلصق الطوابع اللازمة عليها.

الحيوية والمصداقية

لعبة التخفي بالنسبة لماكسي تجعله يغوص في أعماق خفية بعيدة عن أنظار المجتمع والشرطة، ذلك العالم الخفي الذي عشنا معه تفاصيله ومررنا بدهاليزه، فيما ماكسي يمضي قدما في الغوص فيه وصولا إلى مرحلة أن يصبح هو أحد اللاعبين الأساسيين فيه وكأن هناك عالما موازيا قادرا على ابتلاع ماكسي وغيره وتجنيده لصالح تلك التجمعات السرية الخطيرة.

وأما لجهة جماليات البناء السردي وإيصال القصة الوثائقية، فلا شك أن الفيلم نجح ببراعة ملفتة للنظر في إعادة تجسيم الوقائع وتمثيلها بما أتاح للمشاهد فرصة المعايشة الواقعية لكل ما جرى، وبالإضافة إلى ذلك منحت هذه المعالجة الفيلمية الوثائقية هذا الفيلم ميزات إضافية تمثلت في تقديم سيرة مليئة بالحيوية والمصداقية، وتم تعزيز المشاهد بيوميات ماكسي ولياليه وهو الذي كان بالكاد ينام ثلاث أو أربع ساعات في اليوم، بسبب كثافة الطلبيات التي تأتيه، وانغماسه في تكديس المال الذي كان ينهال عليه من كل جانب.

على أن الجانب الآخر من المروي الوثائقي تكامل من خلال أولئك الذين تفاعلوا عن قرب ممع ملف ماكسي بكل تفاصيله وتشعباته وخاصة المحققين ورجال القضاء الذين خاضوا تجربة فريدة مع شخصية استثنائية وغير مسبوقة.

لا شك أن استخدام العناصر البصرية في هذا الفيلم قد تكامل بالتوازي مع التعليق والحوار، وبذلك وفر مساحة متميزة لتتبع الوقائع وتفاصيل تلك الرحلة الغريبة ومجرياتها والتفاعل مع كشف الأسرار الغامضة لذلك العالم السري الغامض الذي تديره في الخفاء العصابات والقراصنة الرقميون المنتشرون في أنحاء العالم.

كيف قدمت هوليوود صورة أفغانستان ما بين أميركا وطالبان

لم تكن أرض أفغانستان إلا أرض صراع في المخيال الأميركي وصورة مجد أميركي ظل يهلل له الرئيس الأميركي بوش، على أنه قمة ما حققته الإمبراطورية باتجاه القضاء على الإرهاب.

وبقيت الصورة النمطية للإرهابيين الأفغان هي السائدة والتي ما لبثت أن انتقلت إلى المشرق العربي من خلال إرهابيي القاعدة وداعش وأتباع الزرقاوي والبغدادي، والتي لاحقتها عدسات هوليوود وقدمت تلك الصورة النمطية البائسة والمزرية لا لشيء سوى لتمجيد البطولات الأميركية الخارقة.

وفيما نحن نعيش اليوم انفراد طالبان بالحكم وخروج أميركا عن بكرة أبيها من أرض طالبان بعد عشرين عاما من الإقامة العسكرية فيها، تتراكم صورة أفغانستان وطالبان والأفغانيين مما قدمته هوليوود وكيف جسدت ذلك الواقع خلال العقدين الماضيين.

يرصد موقع سبيكتاتور نماذج من تلك العينة التي تطرقنا إليها، وحيث الصورة النمطية للصراع الذي تكتنفه صعاب الطبيعة والأيديولوجيا، هو الذي ينتج تلك الشخصيات الانتقامية من الجانبين وكما هي الحال في فيلم "القاعدة الأمامية" للمخرج رود لوريالذي يعدّ من آخر ما قدّمته السينما الأميركية من أفلام حول هذه الثيمة قبيل الانسحاب، حيث يقدم قصة ويوميات أفراد كتيبة أو فرقة حربية أميركية تستوطن بقعة محاطة بالجبال من كل جانب تقريبا، وخلال ذلك تم تأسيس تلك البيئة الحربية على مسافة غير بعيدة عن الحدود مع باكستان، حيث تتمركز مجاميع من مسلحي طالبان وهم يتربّصون بإحدى القواعد العسكرية الأميركية.

على أن الحياة اليومية التفصيلية للجنود ما تلبث أن تتخللها عمليات شدّ وجذب من خلال جلسات التفاوض مع شيوخ من حركة طالبان، ما انفكوا يطالبون بالقصاص من الجنود الأميركان لاعتداءاتهم المتكرّرة على مناطق يقطنها مدنيون في إطار صراعهم الطويل مع حركة طالبان.

الفيلم برمته كان يحكي قصة مصيدة كارثية وقع فيها الجنود الأميركان أمام تدفّق أعداد غفيرة من مسلحي طالبان، وهم ينزلون من أعالي الجبال ويمطرون القاعدة العسكرية بغزارة مذهلة من نيران القنابل والرصاص والصواريخ في جحيم أتى على أغلب جنود وضباط الثكنة العسكرية، لولا اللحظة الأخيرة التي دخلت فيها مروحيات الأباتشي فأنقذت المتبقين من ذلك الجحيم ولتظهر البطولات الفردية الأميركية لعمليات الإخلاء.

وامتدادا للصورة النمطية، وكما ذهبنا من قبل فإن صورة المسلحين الأفغان وهم يموتون غير ذات أهمية على الإطلاق، فهم يتساقطون تباعا أو يقتنصهم الجنود الأميركان، بينما يتم إنقاذ الجنود الأميركان بمهارة متناهية ومجابهة للمخاطر أيا كان مستواها.

وامتدادا لصورة فرسان أميركا ورجال الغرب الأميركي سوف ننتقل بهم من هناك إلى عقر دار مسلحي طالبان وذلك من خلال فيلم "الإثنى عشر الأقوياء" للمخرج نيكولاي فوغيلسيك، حيث تنفذ القوات الخاصة الأميركية أولى مهماتها ضد طالبان بعيد أحداث 11 سبتمبر في ظل حقبة عبدالرشيد دوستم، الزعيم الأوزبكي وأحد أمراء الحرب الذي خاض صراع وجود ضد طالبان فيما الفرسان الأميركان على ظهور الخيل لا يجدون عنها بديلا بسبب وعورة الأرض وسعيا لطلب الدعم الجوي، تمضي تلك المهمة العسيرة ما بين كر وفر فيما فرسان أميركا وكالعادة يبلون بلاء حسنا، يتساقط مسلحو طالبان في صراع دام في وسط بيئة شديدة الوعورة.

إنها الأسابيع الثلاثة الأولى لاشتعال الصراع ما بعد أحداث سبتمبر والقوات الأميركية الخاصة تشق طريقها باتجاه مزار شريف، وخلال ذلك ينسج المخرج خطوط الصراع في إطار درامي متصاعد تؤطره المعارك وصرخات الجنود والطريق الطويل لهزيمة طالبان.

أما فيلم "الناجي الوحيد" للمخرج بيتر بيرغ فإنه يعرض مهمة أخرى ضد طالبان وأحد فصائلها المحاربة بزعامة أحمد شاه مسعود، وخلال ذلك يعمق الفيلم قضية النسيج الاجتماعي السائد من خلال التفاعل مع عرقية البشتون في مواجهة طالبان وما يتبع ذلك من معارك شرسة في بيئة جبلية وعرة، والحاصل أنها فرصة أخرى متاحة لتمجيد البطولات الفردية للقوات الخاصة والأميركية وهي تمضي في مهمتها في تقصي أثر طالبان والاقتصاص، حيث يقدم المخرج وقائع كان قد وثقها الكاتب ماركوس لوتريل في كتابه الختم البحري، وقدم من خلال هذا الفيلم شخصيات القناص لوتريل (مارك والبيرج) والملازم مايكل مورفي (تايلور كيتش) وزميله المدفعي داني بي ديتز (إميل هيرش) وكلهم ينفذون عملية فريدة من نوعها تستدعي قدرات استثنائية.

> هوليوود قدمت صورة نمطية لأفغانستان وطالبان والأفغانيين فيما سعت إلى تكريس البطولة الأميركية مهمشة كل ما سواها

وإذا ما انتقلنا إلى المزيد من التفاصيل التي تتعلق بالحياة الأفغانية وصولا إلى النسيج الاجتماعي والقيمي، فإننا سوف نشهد مغامرة مختلفة في فيلم "الصحراء الحمراء" للمخرج أليكس تيرنر، حيث إن الأحداث تعود بنا إلى فصل آخر من فصول المواجهة مع طالبان إلى درجة أن تتعرض كتيبة أميركية إلى كمين من طالبان يكاد يقضي عليها، وهنا تختلط الخرافة بثيمة الفيلم الحربي عندما يجهز الجنود الأميركان على أحد المزارات الذي يعد في المفهوم البسيط للأفغان ملاذا للجن، مما يوقع الفريق الأميركي في مأزق لا حصر لها، وخلال ذلك وكالمعتاد سوف تنقاد الأحداث لصالحهم ويمضون في مهمتهم مع هامش ملفت للنظر من البطولات الفردية والجماعية الأميركية.

* ط .ع

الأميركان هم الأبطال دائما

حياة يومية خاوية بلا أفلام وثائقية

في إحدى تجارب المخرج الفذ فيرنر هيرزوغ وهو يدخل مع الممثل الراحل كلاوس كينسكي في صراع ودّي في أثناء تصوير الفيلم الوثائقي، صديقي المفضّل، ثم ليقول كلمته الخالدة، يا لها من حياة خاوية من دون وثيقة فيلمية تؤكد هذا النوع من الصمت والجنون.

كل شيء في هذه الحياة يحتاج إلى التوثيق بشكل أو بآخر، تجميد اللحظة من عمر الزمن هو أكثر من ضرورة.

لاحظ فقط كيف تبدّلت أحوالنا وأحوال البشرية منذ مطلع العام 2020 وحتى الساعة ما بعد الجائحة، وكيف تغيّر شكل وإيقاع الحياة وكيف أصبح كل الناس تقريبا يرتدون نصف قناع يغطي نصف وجوههم.

ما عدا ذلك، فإن كل الحروب والصراعات والانقلابات والمؤامرات وحياة الشوارع الخلفية وقاع المدينة والضواحي والقرى وأعالي الجبال وكل المشرّدين والمهجّرين واللاجئين والمغامرين في أمس الحاجة لعين الكاميرا الوثائقية الراصدة.

لاحظ أهمية الصور رديئة النوعية بالأبيض والأسود التي جسدت الحربين العالميتين كمثال على يوميات الصراع، وكيف أصبحت السينما الوثائقية منهلا لصانعي الدراما الروائية يستفيدون من التوثيق ومن الصور الفيلمية التي توثّق تلك الحقبة بل ويشترون حقوق مقاطع فيلمية بأكملها لتضمينها أفلامهم الروائية.

في المقابل لا يرى السواد الأعظم من جمهور المشاهدين في السينما إلا الدراما والصراع والحركة والمطاردات والإثارة والرومانسية والخيال العلمي والفانطازيا في مزيج نفيس من جماليات الإبداع السينمائي بينما تغيب السينما الوثائقية اللامعة والقريبة بشكل جدي من الإنسان ومن يوميات الإنسان، من الواقع ومتغيراته، من نبض الحياة وطباع البشر، من البيئات والأماكن والتواريخ والعادات والفولكلور والطعام والمال والمضاربات وغيره كثير.

وسواء أكنا نتحدث عن استقامة الحياة أم عن تعرّجاتها، عن الحياة الصحيحة المتوازنة أم تلك الحياة التعيسة والكارثية والمأزومة، فإننا نتحدث عن السينما الوثائقية حتى تغدو جزءا حيويا من حياة كاملة، وبهذا وجد هذا النوع الفيلمي مداه في كونه ليس إلا امتداد الحياة نفسها بجميع متغيراتها.

وإذا ذهبنا بعيدا في هذه الإشكالية ما بين الروائي والوثائقي فإن تعويد الجمهور على جماليات الصورة الوثائقية هو أكثر من ضرورة، وأن انغماس الجمهور العريض في الروائي يبعده عن رؤية ما يجري من حوله كما يضيع عليه صورة الواقع بكل ما فيه من خفايا وأسرار لا يبرع فيها سوى الوثائقي بالبراعة والكيفية التي ينجز بها مهمته بجدارة ويقترب من حياة الشعوب.

> مواهب السينمائيين الوثائقيين العرب تضيع بسبب انعدام الاهتمام والدعم فضلا عن غياب قاعدة المتلقين المهتمين بهذه السينما

سوف تحضر هنا تجارب ويرنر هيرزوغ وإيرول موريس ومايكل مور وأنييس فاردا وروبرت غرين وكلود لازمان ولي بلانك وجيمس مارش وقبلهم فلاهيرتي وفيرتوف، وأما على الصعيد العربي فسنتذكر تجارب عمر أميرالاي وقاسم حول وعبدالهادي الراوي وقيس الزبيدي وقتيبة الجنابي وعباس الشلاه وطارق عبدالكريم وعباس فاضل وغيرهم. التجارب العربية المتقطعة خلفت وراءها صمتا وثائقيا شبه كامل تعثّرت فيه جهود ومواهب سينمائيين وثائقيين بسبب شبه انعدام الاهتمام والدعم، فضلا عن شبه غياب قاعدة المتلقين المهتمين بالسينما الوثائقية والذين يكرّسون جل اهتمامهم للفيلم الروائي الدرامي الطويل ويغيبون الوثائقي، وخير دليل على ذلك أنك لو استطلعت آراء أي شريحة من الجمهور لجهة كم فيلما وثائقيا شاهدوا في مقابل الروائي والدرامي الطويل لاتضحت الصورة بشكل جليّ ولأيقنّا حجم الخسارة والفجوة الكبيرة القائمة بسبب غياب أو إهمال وتناسي الوثائقي.

وأما إذا انتقلنا إلى السؤال الذي يمكن أن يطرح في أثناء هذه المناقشة والذي يدور حول فكرة الوثائقي ومن أين نأتي بالموضوعات الوثائقية وما إلى ذلك من أسئلة تتعلق بسيكريبت الوثائقي، فإن الإجابة ببساطة هي أن الأفكار والموضوعات الوثائقية والصالحة لكي ننجز حولها أفلاما وثائقية إنما تكمن في الحياة اليومية ومستجداتها ومتغيراتها وما اختزنته البشرية أيضا عبر تاريخها، وكذلك الحال للشعوب وسكان المدن والقرى وحيثما وجد الإنسان ووجدت الحياة ثمة فكرة لفيلم وثائقي جديد وياله من منجم لا ينفد.

* ط .ع